المخطوط العربي والرقمنة: الواقع والآفاق

فيصل الحفيان ■

مقدمة (هاجسا الرقم والحرف):

يعيش العالم اليوم هاجسين: هاجس الرقم، وهاجس الحرف، وما ثورة المعلومات والاتصالات ـ في جزء مهم منها ـ إلا ثمرة من ثمار الانشغال بالرقم، أما الحرف فهو وحدة الكلمة التي هي قوام اللغة. نحن ـ إذاً ـ بين الرقم / العدد، والحرف / اللغة، ثنائية لا بد من امتلاكها لتحقيق الوجود الحضاري في هذا العصر.

من الرقم تولدت مصطلحات كثيرة، منها الرقمنة. وحمل الحرفَ عبر التاريخ ما نسميه اليوم بالمخطوط.

ومما يؤسف له أننا لم نستجب كما ينبغي للهاجسين، والدليل القريب أننا نعاني بل نعيش أزمة معرفية يعبَّر عنها بلغة اليوم بالفجوة الرقمية، كما نعيش أزمة لغوية، وليس أدلُّ عليها من أن العربية على الإنترنت

■ منسق برامج معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

لا تزيد بوصفهـا لغة محتوى علـى 1%، وأنها لا تعدُّ ضمن اللغات العشـر العالمية ذات المحتوى الأعلى على الشبكة العالمية !

قد تخدعنا حالة الرقمنة التي تجتاح مؤسسـاتنا؛ لكن الحقيقة أنها حالة ظاهرية شكلية قشـرية. أما المخطوط وهو موضوع الرقمنة ومادتها فليس أحسن حالاً، فعلى الرغم من غنى التراث العربي كمًّا ونوعًا وتنوعًا، والطاقـات المختلفـة الكامنـة في داخلـه، فإننـا حتى الآن مشـغولون باستكشـافه والتعرف عليه، وما زلنا ندور في فلك نصوص فيه، فهرسـة، وتحقيقًا (أو تصحيحًا)، لا نجاوز ذلك إلى ما وراءه.

* * *

المفردة الأولى في العنوان، وأنا لسـت مهندسًا، ولا علاقة لي بالحواسيب وثورة المعلومات، ولست قريبًا من عالم هذه التقنية ودقائقها، وإن كنت مسؤولاً بحكم كوني منسـقًا لبرامج معهد المخطوطات العربية التابـع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) عن مشروع يتمثل في رقمنة رصيد المعهد من المخطوطات المصورة على ميكروفيلم، ويصل إلى نحو خمسين ألف مخطوط.

المفـردة الثانية «المخطـوط» وهي ترمز للتـراث، وتحديـدًا التراث الفكري الذي هو ـ في تقديـري ـ أعلى أنواع التراث وأكثرها أهمية وتأثيرًا؛ لأنه نتاج العقل في أعلى درجاته (العقـل العلمي) ونحن نملك رصيدًا كبيرًا محترمًـا منه، ولفظ الرقمنة يرمز للحاضر، ولأبـرز مظاهره وإنجازاته في حقل ما يسمى بثورة المعلومات التي هي سمة العصر.

ثم هناك مفردتان: الواقع والآفاق.

1 ـ مفارقات العنوان

مفردات العنوان ومفاهيمها وظلالها، كل ذلـك جعلني في مواجهة عدة مفارقات:

المفارقة الأولى القريبة في ما اسـتدعاه العنوان في شكله، أعني شكل الثنائية المزدوجة: المخطوط والرقمنة، والواقع والآفاق.

إن حياتنا الثقافيــة والحضارية ما زالت تعاني بحدة مــن ثنائيات الماضي والحاضر، والأصالة والمعاصرة، والتراث والحداثة.. التي تشطر العقول والقلوب معًا، وما زلنا لا ندري لماذا نجعل حياتنا ومقولاتنا في حال مواجهة دائمة!

المفارقــة الثانية تذهب بعيــدًا، فتتجاوز خطر الثنائيات فــي حياتنا، إلى خطرها في وجودنا نفسه. إن التراث الذي ترمز له المخطوطات هو في جوهره «نحن» الماضية، هذه الـ«نحن» كانت حاضرة حضورًا طاغيًا، أما «نحن» اليوم فمقطوعة الصلة أو تكاد بتحقيق إنجازات، لا في حقل ثورة المعلومات والرقمنة، ولا فــي غيرها. هي إذاً أزمة وجــود: إنجاز ضخم في الماضــي، وغياب ضخم أيضًا في الحاضر، وبعبارة أدق «عن» (لا «في») الحاضر.

إنّ حياتنا الثقافية والحضارية لا تزال تعاني بحدة من ثنائيات الماضي والحاضر، والأصالة والمعاصرة، والتراث والحداثة التي تشطر العقول والقلوب معاً

المفارقــة الأخيرة تُلمح من أننــا أمة تراثية بامتياز؛ لكننا ـ لا شك ـ أمة خارج العصر بامتياز أيضًا، ونحن نرى أن دخول العصر إنما يكون عن طريــق «التراث». بعبــارة أخــرى: إن وجودنا في الحاضر لن يتحقق إلا بالماضي، وليس المقصود بالحاضر والماضي الزمان؛ فالزمان لا يعدو كونه ظرفًا؛ إنما المقصــود بالحاضر هو حياتنا اليوم، وبالماضي إنجازاتنــا بالأمس، وفي قلبها «التراث المخطــوط» أو «المخطوطــات»، وإنما كان الأمر كذلك لأن الأمم التراثية ـ وفي مقدمتها الأمة العربية الإســلامية ـ لا ينبغي أن تتخلى عن تراثها أو تنقطع عنه، ولا تســتطيع ذلك حتى لو أرادته؛ إذ إن تخليهــا أو انقطاعها عنه يعني ببســاطة أن تبدأ من الصفــر. وفي ظل قانون التداول الإلهي الذي يعني ـ ببســاطة أيضًا ـ أن أمة أخرى تحمل الراية: راية الحضارة والتقدم؛ فإن قوة الجذب الذي تملكه هذه الأمة (هي شعوب الغرب اليوم) ســتبتلع ـ كما ثقوب الكــون الســوداء ـ كل ما حولها، أو تنســخه أو تمســخه، فيلتحق بها ويــذوب داخلها ويصبح جزءًا منهــا، ولا منجاة من هذا الالتحــاق أو الإلحاق إلا بالتــراث؛ لأن التــراث (العظيم) فــي جوهره ليس إنجازات علمية فحسب؛ بل رؤية للإنسان والكون والحياة، أو بلغة اليوم: رؤية

للعالم، واختلاف الرؤيــة أو خصوصيتها هو الذي يصنــع الحضارات، ويميز الأمم، بعيدًا عن الاستقطاب والذوبان وفقدان الملامح.

بقيــة العنوان: «الواقــع والآفاق» متعلقــة ـ بالطبع ـ بحاضــر المخطوط العربي ومستقبله؛ ولكنني لم أستطع دفع أن الأمر يجاوز التراث إلى أصحابه. نحن اليوم محتاجون أن نفكر كثيرًا في واقعنا ونقيّمه، حتى نتمكن من تغييره، وحتى نحفز أنفسنا على التوجه نحو آفاق جديدة، فنكون امتدادًا لتراثنا.

إذا كانت الرقمنة بمفهومها القريب هي عملية تحويل النص أو الأثر من الحرف أو الصورة الساكنة ـ على الأقل فيما يُخَيَّل لنا ـ إلى الرقم المتوثِّب حركة، فإننا نحن أنفسنا بحاجة إلى «رقمنة» حتى ننطلق نحو المستقبل!

واقع المخطوط ومســتقبله وعلاقته بالرقمنة إذاً هو موضوع هذا البحث، لكن ذلك لا يمنع من أن نقدم بتمهيد يوقفنا ـ باختصار وتركيز ـ على مفهوم كل من المخطوط؛ هذا الكائن التاريخي الذي وصل إلينا محمولاً على أكتاف الزمان، والرقمنة؛ هــذه التقنية الحديثة جدًّا التــي فاجأتنا أو صدمتنا في العقود الأخيرة. ويمكن أن تخدم المخطوط ـ بلا شك ـ خدمات عظيمة.

2 ـ المخطوط: تحليل المفهوم

ما هــو المخطوط؟ ســؤال قريب، ويمكــن أن تكون الإجابة في أبســط صورها: الكتاب القديم المكتوب بخط اليد، وهي إجابة موهمة أو ملتبســة، وإزالة هذا الإيهام، وفك هذا الالتباس، يمرُّ عبر أحد أســس نيوتن في فهم الأشياء، أعني أســاس الاختزال الذي يقوم على تحليل الشيء إلى عناصره، والتحليل يوازي التفسير.

يتكون المخطوط من عنصرين رئيســين: الأول هو الجســم، أو الكيان المادي، أو الحامل وما يرتبط به، والثاني هو المحتوى أو النص أو المعرفة. الأول يجعلنا ننظر إليــه على أنه «أثر»، والثاني يجعلنــا نفكر فيه على أنه معنى؛ أي شــيء يُدرك بالعقل، ولا يتوصل إليه بالحواس الظاهرة، والأثرية والمعرفية معًا يشكلان المخطوط. في الغرب اليوم علم قائم برأسه يختص بدراســة أثرية المخطوط: الجســم بعناصره جميعًا: الورق والمداد والخط

والجلد والغلاف الداخلي الأمامي (طرة العنوان)، والورقة الأخيرة (حرد المتن)، والأشكال والألوان، ويضيفون إلى ذلك كل ما عدا النص أو المادة العلمية الأساسية التي صدرت عن المؤلف، ويندرج تحت (ما عدا) هذه أمور كثيرة تكون على حواشي النص، ويمكن قسمتها إلى ثلاثة أقسام:

- قسم يتصل بالكيان المادي.
- وقسم يتصل بالنص اتصالاً مباشرًا؛ لأنه يصححه أو يخطئه أو يفسره، أو يستدرك عليه، أو يخرِّجه أو يوثقه.
- وقسم لا علاقة له بالكيان المادي، ولا بالنص، وربما يكون نصًّا آخر موازيًا، أو يكون عبارة عن معلومات أو أخبار أو تقييدات متفرقة مستقلة.

يتكون المخطوط من عنصرين رئيسين: الأول هو الجسم، أو الكيان المادي، أو الحامل وما يرتبط به، والثاني هو المحتوى أو النص أو المعرفة

هذه الأقسام جميعًا تُدرس من جهة ارتباطها بالمخطوط (النسخة) في إطار علم الكوديكولوجيا، الذي يُعنى ـ كما قلنا ـ بكل ما عدا النص الأصلي للمؤلف، وضابط ذلك أن العلم يُعْنَى بمتغير الوعاء لا بثابت النص، فالنص ـ في الغالب ـ ثابت ألّفه المؤلف على صورة واحدة، ومهما تغير الوعاء (النسخة) الذي كتب فيه؛ فإنه يظل هو هو باستثناءات سببها السقط والزيادة والتصحيف والتحريف، أما ما عدا النص فإنه يتغير بتغير الوعاء (النسخة) بدءًا من الورق والتجليد ونوع المداد وملامح الخط وليس انتهاءً بالحواشي وقيود طرة العنوان وخاتمة النسخة.

المخطوط إذاً هو نص، ووعاء وملامح فارقة تميز هذا الوعاء وتمنحه خصوصيته، هي التي تسمى في علم المخطوطات بـ«خوارج النص» ويمكن أن نسميها «بيئة النص».

وإذا كان الوعاء وملامحه المميزة موضوع علم المخطوطات، فإن النص أو إخراجه للناس هو موضوع علم التحقيق، الذي يطلقون عليه في الغرب، وتحديدًا في ألمانيا: الفيلولوجيا. التحقيق أو الفيلولوجيا هو علم (أو فن) نقد النص ونشره.

هذه هي بنية المخطوط المجرَّدة، ونوعا الدرس اللذان أشرنا إليهما: الكوديكولوجيا (علم المخطوط) والفيلولوجيا (علم التحقيق) قد يكونان درسين مباشرين يركِّزان على هذه البنية، ويتحركان في إطارهما، وقد يمتدان وتعلو درجتهما لتنشد في ما يتعلق بالنص الأفكار والمفاهيم واكتشاف طرائق التفكير واستخلاص الخطاب، وفي ما يتعلق بالكوديكولوجيا التاريخ العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحرفي، بل الحراك الحضاري بصفة عامة.

بهذه الجوانب المتنوعة والمتعمقة ننتقل من التفكير في المخطوط (الوعاء والمحتوى) إلى التفكير في التراث (الوعاء والمحتوى وما وراءهما)، فالتراث مفهوم كلي شامل، نعاين بعضه بحواسنا الظاهرة، وندرك بعضه بعقولنا وقلوبنا، وإذا كنا قد فككنا المخطوط لتفسيره إرضاء لنيوتن، فإننا سنسترضي أينشتاين الذي يرى أن التفكيك والوقوف عند العناصر يفقد المخطوط جوهره، بالقول: إن ما قلناه عن العناصر إنما هو لمجرد التقريب؛ إذ إنها متداخلة، لا يمكن الفصل بينها، هي متداخلة في الحقيقة، ولذا فإن لونًا من الدرس لعنصر لا يقوم إلا بالنظر إلى العناصر جميعًا.

3 ـ المخطوط والرقمنة: سؤال اللقاء

لم يمض على انطلاق هذا التطبيق التكنولوجي الخطير المسمى بالرقمنة سوى نحو أربعة عقود (1970م)، ولم يمض على اجتياح هذا التطبيق لنا سوى نحو عقدين مترافقًا مع غزو الشبكة المعلوماتية فضاء دنيانا، فقد عرفنا «الإنترنت» في مطلع التسعينات من القرن الماضي، وكأن الألفية الثانية قد أبت أن تغادرنا من دون أن تترك بصماتها في سجل الزمن، ولا ندري بالطبع ماذا ستحمل لنا السنوات القادمة، فالسنة في أيامنا هذه توازي القرن في الأيام السابقة، والقرن يوازي القرون.

وعلى أية حال فإن الرقمنة ما عادت مجرد وسيط حديث لمضامين حديثة؛ لقد أصبحت وسيطاً لا غنى عنه لمضامين تاريخية موغلة في الزمن

الماضـــي، ومَن يســـتعرض الآن عمل المؤسســـات العاملة في حقـــل التراث بمختلف صنوفه وأوعيتـــه: الوثيقة والأثر والمخطوط؛ يجد أنها في حالة من الرقمنة يمكن وصفها بالاجتياح.

وبعيدًا عن حالة الاجتياح هذه ثمة إشكالية كبيرة لا بد أن تلفتنا؛ ذلك أن هذا اللقاء بين المخطوط وتقنية الرقمنة يثير في حدِّ ذاته، ويثير حوله الكثير من الأسئلة.

1/3: كائن تاريخي ووسيط حداثي

وأول هذه الأسئلة أن المخطوط بكليته: كيانه المادي، أو جسده بعناصره المختلفة، ومحتواه، ومـــا يحيط بهذا المحتوى، هو كائـــن تاريخي قادم من الماضـــي، وأن الرقمنـــة تقنية تنتمـــي إلى ما بعـــد الحداثـــة، وصبُّ هذا المخطوط أو إلباسه هذا اللبوس الـ«ما بعد حداثي» هو قفزة واسعة وسريعة مـــن الماضي إلـــى المعاصرة. صحيـــح أن هذه القفـــزة شـــكلية؛ فالرقمنة والوسائط المرتبطة بها قد ينظر إليها على أنها تقنيات وأوعية؛ لكن مجرد اللقاء قـــد يوهم بأنه لا تعارض بيـــن التراث والحداثـــة، وأن الجمع بينهما ممكن، وهو ـ كما وصفنا ـ مجرد وهم، فالتراث ســـيبقى تراثًا بكل حمولته التاريخية والفكرية، والرقمنة ســـتظل وسيطًا أو وعاء منبتّ الصلة بالتاريخ، الماضي والتاريـــخ لن يتغيـــر فيهما شـــيء، والحاضر وإنجازاته ســـيظلان بملامحهما وخلفياتهما الخاصة. هو ـ إذاً ـ التقاء شـــكلي لا ينفي التعارض، قد يوهمه؛ لكن الحقيقة على خلاف ذلك.

2/3: الحرف والرقم

ثاني الأسئلة ـ وقد يكون فيه تفسير لسابقه ـ يتصل بأن المخطوط يحمل نصًّا لغويًّـــا؛ أي أن هويته تقوم علـــى الحرف (اللغوي)، علـــى حين أن هوية الرقمنة شـــيء مغاير هو الرقـــم، ورقمنة المخطوط تعني صـــبَّ الحرف في قالب الرقم. من المعلوم أن فلسفة فيثاغوراث تقوم على فكرة عبقرية مفادها

أن كل شيء في الكون هو رقم، وأن تفسير أي شيء في هذا الكون إنما يكون بردِّه إلى أصله، أي الرقم، لكن أصالة الرقم لا تلغي الشـخصية الجديدة، شخصية الحرف التي انفصلت وأصبحت عالمًا مسـتقلًّا، له دلالاته وظلاله وإيحاءاته. لقد تم مع الرقمنة توظيف الرقم لتفسير الحرف، أو لنقُلْ: إننا رددنا الحرف إلى أصله؛ حتى نجعله مفهومًا للآلة لتسـتوعبه، وانتهى الأمر عند هذا الحد، فالحرف بعد الرقمنة يرتدُّ لنا حرفًا كما كان، لا رقمًا.

3/3: بُعْد واحد وعالم متكامل

ثالث الأسـئلة يرتبط بأن الرقمنـة ذات بُعد واحد، فهـي مجرد تقنية وسيطة بين المخطوط والآلة، وبُعدها المشار إليه ينحصر في عملية النقل؛ لتحقيق غرضين: الحفظ، والإتاحة. أما المخطوط فهو عالم متكامل، إنجاز جماعي يشترك فيه أكثر من طرف: المؤلف، والناسخ، وربما أطراف أخرى، فهو إنجاز جماعي يتكون من عناصر سـبق أن وقفنا عندها، وتحمل حمولات تتصل بالعلم والمعرفة، والتاريخ الثقافي والاجتماعي والفني للناس.

4/3: الآنية والخصوصية

رابع الأسـئلة مُفاده أن الرقمنة التي تحول الحـرف إلى رقم من أجل الآلة هي عملية آنية تتم في التوِ، ويقوم بها أي شـخص، ولا ترتبط بمكان، مـن دون أن تكـون هناك خصوصيـة مرتبطـة بالعملية في حـد ذاتها، أو بالشخص الذي قام بها، أو المكان الذي تمت فيه. والمخطوط على النقيض من ذلك؛ فهو ـ وعاءً ومحتوى ـ شـديد الارتباط بالزمان وبالمكان؛ لا ينفك عنهما، كل ما في الأمر أنـه يحتاج لألوان من الدرس التي تفك طلاسـمه وتؤصل المكان والزمان اللذين أنجز فيهما، وتترتب على معرفة ذلك قضايا كبيرة وصغيرة تتصل بالعلم والفكر والتاريخ من جهات مختلفة.

أليـس في هذه الأسـئلة جميعًـا ما يـدلُّ على أن المخطوط شـيء، والرقمنة شـيء آخـر، وأن لقاءهما شـكلي، وأن علينـا أن نجاوز حدود

الشكل لنستبطن المضمون، ونعرف ما هي الأبعاد الحقيقية المترتبة على عملية رقمنة المخطوط؟

4 ـ وظائف الرقمنة

أول ما يتبادر إلى الذهن ونحن نفكر في الرقمنة أنها تقوم بوظائف مهمة بالنسبة للشيء الذي يتم عن طريقها نقله إلى الصورة الرقمية، وتحديدًا التراث:

1/4: الحفظ، أو «التوثيق»

إنّ الرقمنة التي تحول الحرف إلى رقم من أجل الآلة هي عملية آنية تتم في التوِ، ويقوم بها أي شخص، ولا ترتبط بمكان

وقد ذاعت هذه الكلمة الأخيرة ذيوعًا كبيرًا، ربما لأنها تجاوز المفهوم المباشر للحفظ بمعنى الإبقاء على الشيء، إلى مفهوم أعلى هو الإبقاء والرعاية والصيانة من التلف وضمان استمرار الوجود وعدم الاختفاء في المستقبل، والوعي بضرورة الإفادة والتوظيف، حتى إنها أصبحت جزءًا من أسماء تلك المراكز والمؤسسات والهيئات الوطنية والإقليمية والعالمية التي أنشئت أساسًا من أجل «التوثيق» للتراث بأشكاله المختلفة، على أساس أن توثيق التراث هو حفظ أو محافظة على ذاكرات الشعوب، بل على ذاكرات الأرض التي نعيش عليها، بما عليها من مخلوقات ومعالم.

2/4: الإتاحة

وهذا أمر مهم للغاية، فقد كان المخطوط يعاني من الجدران والأرفف، بل حتى الصناديق التي يحبس فيها، وكان الباحثون يركبون الصعب من أجل الحصول على مخطوط ما، ويقطعون المسافات الطويلة من أجل ذلك. مع الرقمنة والوسائط الإلكترونية اختلف الأمر؛ فأصبح بالإمكان للمستفيد أن يعرف أين يوجد المخطوط، وأن ينسخه بنفسه من خلال الحاسوب، أو أن يسدد ثمن هذه الصورة وهو جالس أمام الجهاز،

لنقُـلْ إذن: إن الرقمنة جعلت من المخطوطات «شـيئًا ديمقراطيًّا» متاحًا للجميع، معرفة واقتناء وإفادة.

3/4: مساندة البحث والتحقيق

والرقمنة ـ كما هو معروف لـدى المتخصصين ـ نوعان: رقمنة صورية، تحـوِّل النص إلى صورة، ورقمنـة نصية، تبقي على النـص نصًّا؛ أي تجعل بالإمكان التحكم في النص، وإدخال تعديلات عليه، وذلك بمسـاعدة برامج خاصة بالتعرف على الحروف.

ولكل من النوعيـن مزايا وعيوب، فالرقمنـة الصورية تحمي المخطوط من العبث به، والنصية ربما تسـاعد الباحث وتكـون عونًا له، على أن هذا النوع الأخير خطير جدًّا؛ لأنه يفتح الباب للعبث في النص الأصل.

ومما يتصل بمسـاندة البحـث والتحقيق تلك البرامـج الخاصة التي قد تعتمـد على الصور الرقميـة للمخطوطات، وتقوم بعملية أساسـية من عمليات التحقيق، هي المقارنة بين النسخ، مما يوفر جهد الباحث ويقتصد له الوقت، لكـن الحذر مطلوب؛ فقد رأينـا أخطاء علمية فادحة فـي كثير من النصوص المنشورة نتيجة الاعتماد على التقنيات، وبخاصة في عمليات التكشيف، فالآلة تظل آلة تفرق بين أمور لا بد أن تجتمع، وتجمع بين أمور لا رابط بينها !

وثمة ألوان من الدرس التي تفيد وستزداد إفادتها من الرقمنة خصوصًا، وتقنيات ثـورة المعلومات عمومًا، منها الدرس الخـاص بالتحليل الإحصائي الـذي يمكن مـن خلاله رصـد ظواهر لغويـة ومعجميـة وأسـلوبية تتصل بالنصوص وأصحابها من المؤلفين والشـعراء والعلمـاء في مختلف مجالات المعرفة، ولها انعكاساتها على جوانب توثيقية وتأصيلية في غاية الأهمية.

4/4: ثم إن هناك وظائف أو فوائد أخرى للرقمنة، نجملها في:

اقتصاد المال، فمن المعلوم أن نفقـات التصوير الرقمي أقل بكثير من نفقات التصوير الضوئي (الميكروفيلم) والتصوير الورقي.

اقتصاد المكان، وذلك أن الأقراص المضغوطة والوسائط الرقمية بأشكالها المختلفة لا تكاد تشغل حيزًا، خلافًا للأوعية الأخرى (الميكروفيلم وغيره).

اقتصاد الجهد والوقت، فعن طريق تقنية الرقمنة يمكن أن يتاح المخطوط (والمعرفة عمومًا) بصورة خيالية، حتى إن المستفيد يصل إلى بغيته بسرعة كبيرة، وسهولة لم يكن يحلم بها.

اقتصاد الترف، فالرقمنة تتيح المخطوط، وتحديدًا النص التراثي، في أشكال متعددة يلبي حاجة العين (النص المنظور) وحاجة الأذن (النص السمعي) وحاجة من نوع آخر، يندمج فيها الإنسان مع النص، وهو ما يعبَّر عنه اليوم بـ«التفاعل»، ويقوم الإنسان بواسطته بـ«التداخل» مع النص.

اقتصاد التعميم؛ تعميم المخطوط، فالرقمنة هي أسرع طريق للتعريف به من جهة، ولنشره من جهة ثانية، ولكل خدمة تتصل به من جهة ثالثة.

5 ـ هوامش

1/5: الصورة لا تلغي الأصل

في ما يتصل بالحفظ يثار سؤال: هل الرقمنة ـ رقمنة المخطوط ـ تعني الاستغناء عن المخطوط ذاته؛ أي عن المخطوط في صورته الأصلية (التاريخية)؟

والجواب: إن النسخة الجديدة (المرقمنة) ـ على الرغم من مطابقتها التامة للأصل بتفصيلاته (الظاهرة ـ أو المرئية) وألوانه ـ هي صورة، والصورة هدفها الحفظ، أو التوثيق، ويظل للأصل قيمته، سواء في ذاته، بوصفه أثرًا، والأثر لا يمكن لنسخة أخرى منه ـ أيًّا كانت ـ أن تحل محلَّه، أو في الدرس الذي يمكن أن يقوم عليه، خاصة إذا كان الأثر «مخطوطًا» لأسباب سنتوقف عندها لاحقًا.

2/5: لا وجود للمخطوط الافتراضي

تتيح الرقمنة المخطوط بصور مختلفة كما أسلفنا، فهل يسوغ لنا أن

نتحدث عما يمكن تسـميته بـ«المخطوط الافتراضـي» أو الإلكتروني تمامًا كما نتحدث عـن الكتـاب الإلكتروني، وإلـى أي مدى يمكـن أن يحل هذا المخطوط الافتراضي محل المخطوط الأصل؟

هنا نستذكر ما سبق من حديث عن عناصر المخطوط.

في مـا يتصل بالكيان المـادي يمكن أن يغني المخطـوط الافتراضي تمامًا في ألـوان الـدرس الفنيـة المعنية بالأشـكال والرسـوم والصور والزخارف والألوان، وكل ما له علاقة بما أسميناه «خوارج النص» وأيضًا ملامح الخـط؛ لكنه لا يغنـي في التعرف علـى تركيب الـورق والمداد، ولا على طرق تركيب الكراسـات ونحو ذلك من الدراسات الحفرية التي تندرج تحت الدرس الكوديكولوجي الخالص، وتترتب عليها أمور في غاية الأهميـة وثيقة الصلة بالـدرس التاريخـي والاجتماعي وتقاليـد الصنعة وعلاقاتهـا بالزمان والمـكان، وهي نفسـها تنعكس على الـدرس الآخر المتعلق بالمحتوى (النص) وتوثيقه وتأريخه.

ولذلك فإن المخطوط الافتراضـي «الكامل» لا يزال غير موجود، وربما يمكن التغلب على هـذا بأن تُعنى مراكز التوثيق والجهـات المعنية بالتراث بما يمكن تسميته بالفهرسة الكوديكولوجية، التي ترفق «بطاقة» بمثابة هوية تركز على شخصية المخطوط الكوديكولوجية. هذه مجرد فكرة، تحتاج ـ بلا شـك ـ إلى الكثير من التقليب والدرس، كما تحتاج إلـى الكثير من المال والجهد والوقت.

3/5: التحقيق الآلي

تسـاند الرقمنة بإمكاناتها البحـث في المخطـوط، وتحقيقه وخدمته، ونحن نعـرف اليـوم مصطلح «التحقيـق» أو مصطلـح «التحقيـق العلمي» للنصوص، والقريبون من المحققين من عالم التقنية وبرامجها وحواسـيبها يوظفون إمكانات هذا العالم لخدمة أعمالهم، فيفلحون حينًا ويخفقون حينًا. والذي لا شـك فيه أن «التوظيف» أصبح أمرًا لازمًا لتحقيق أغراض التراث

نفسه، ولكن لا بد من الحيطة والتدقيق، وفي ظل التطورات التي نراها في تطبيقات ثورة المعلومات على المخطوطات، ليس من المستبعد في وقت قريب أن يظهر مصطلح جديد هو «التحقيق الآلي».

خاتمة:

إنّ المعرفة مفهوم شامل يشمل المعرفة التي تنتج اليوم (الحديثة) والمعرفة التي أنتجت بالأمس، فالمعرفة ـ كما هو مقرر ـ بنية تراكمية

نعيش ـ نحن العرب والمسلمين ـ فجوة رقمية، وهي ـ كما قال نبيل علي ونادية حجازي، في كتابهما الذي صدر ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية منذ سنوات قليلة ـ «فجوة الفجوات»، يريدان أنها الفجوة الأم التي تحمل في رحمها كل بذور التخلف المجتمعي.

ولكن ما المقصود بالفجوة الرقمية؟ لقد لخصاها في: عدم القدرة على النفاذ إلى مصادر المعرفة، واستيعاب المعرفة ذاتها، ثم توظيف المعرفة، وتوليدها من جديد.

ونلاحظ أن الفجوة الرقمية تعني الفجوة المعرفية، فهي تتمحور حول المعرفة بدءًا من مصادرها وأدواتها (شبكات الاتصالات والإنترنت والتقنيات الإلكترونية المختلفة)، مرورًا باستيعابها والتدرب على استخدامها وتوظيفها في مختلف جوانب التنمية، وانتهاء بالقدرة على توليدها عبر المؤسسات البحثية والإنتاجية والخدمية.

والمعرفة مفهوم شامل يشمل المعرفة التي تنتج اليوم (الحديثة) والمعرفة التي أنتجت بالأمس، فالمعرفة ـ كما هو مقرر ـ بنية تراكمية، وكما أنه لا يمكن توليد المعرفة إلا بامتلاك المصادر والأدوات، واستخدامها، وبناء المؤسسات، فإن التراث المخطوط يحتاج إلى ذلك كله.

لقد عَدَّ الباحثان ـ إضافة إلى الفجوة الرقمية ـ ست فجوات أخرى: فجوة المحتوى، والاتصالات، والعقل، والتعلم، واللغة، واقتصاد المعرفة، وأحسب أن بإمكاننا أن نضيف فجوة أخرى، هي الفجوة التراثية. نعم ثمة

إشارات إلى المسألة التراثية بوصفها جزءًا من المحتوى الرقمي؛ لكنها (أي المســألة التراثيــة) أكبر من كونهــا محتــوى؛ فالتــراث ـ والمخطوط منه تحديــدًا ـ قضيته كبيرة، لهــا أبعادها، ومــن الضروري أن نلفــت في هذا السياق إلى أن من شروط توليد المعرفة العصرية حضور المعرفة التراثية؛ لأن هــذه الأخيرة تمثل للأولــى الذاكرة؛ أي البُعد التاريخــي الذي يجعلها تصدر عــن رؤية خاصة تملــك منطلقات وغايات ومحتــوى، ولا تكون صورة لمعرفة أخرى، ولا سبيل للوصول إلى ذلك إلا بالحرص على امتلاك أدوات العصر وتوظيفها للإفادة من التراث بأبعاده المختلفة، ومنها البُعد المعرفي من جهة، ولاســتيعاب معرفة الآخر وتمثلها من جهة أخرى، ثم توليد معرفة جديدة من جهة ثالثة، وبذلك يتحقق الوجود الحضاري المتميز.